حدث هذا في ديالى 2003

أيام للحرب.. أيام للنهب... أيام للانتظار
لا مزيد لطفاً

مع الخطاب الذي القاه الرئيس الأمريكي جورج بوش في (2003/3/18) وانذار صدام حسين ليغادر العراق خلال (48) ساعة راحت ديالى تخرج من رتابتها لتكون أمام مشهد جديد/عرض جديد، ربما هو غير مسبوق، إذا استثنينا ما حدث في كانون الثاني (1991) إبان حرب الخليج الثانية، فقد كان شيئاً آخر، مختلفاً يلوح في هذه المرة يشعر به المرء بغموض وبتوجس، ولا يجد فسحة من وقت ليدركه تماماً بوعيه لأن أموراً أخرى أشد إلحاحاً كانت تضغط عليه.. أموراً أكثر تفاهة، ولا أقصد الخوف بالتأكيد.. الخوف الذي هو ظل ثقيل يخيم في أثناء الحروب كلها.

مشهد أول: كثافة المظاهر العسكرية..

منذ منتصف شباط أخذوا يحفرون الخنادق الشقية على شكل أحزمة تحيط بالأحياء السكنية، وداخل الأحياء السكنية ذاتها، وانتشر ثمة مئات، بل آلاف، من قوات فوج الطوارئ والأمن والمخابرات والاستخبارات، وأعضاء حزب البعث ذوي البدلات الزيتونية.

استدراك:

قبل شهر من بدء الحرب دخل عضو في الحزب محل خياط يعرفه جيداً ومعه قطعة قماش (زيتوني).. سأله الخياط (من باب الثقة): وماذا تبدّر نقودك في خياطة بدلة مثل هذه؟

..استغرب عضو الحزب وقال: ماذا تقصد؟ ..قال الخياط: ألا ترى أن كل شيء أوشك على نهايته؟..

خرج عضو الحزب غاضباً من محل الخياط.. وفي اليوم نفسه حضرت ثلة من الرجال يرتدون (الزيتوني) واقتادوا الخياط إلى جهة مجهولة، وبعد يومين ألقوا بجثته أمام داره.. لم يحدث هذا في ديالى.. حدث في كركوك.

مشهد ثان:

تتقاطر العوائل البغدادية على المحافظة.. وساعة بعد أخرى يصبح منظر البغداديين القادمين في الحافلات وفي السيارات (الخصوصي واللوري ومصلحة نقل الركاب من ذوات الطابقين) مثير ألا لانتباه حتى إذا حلقت الطائرات الأولى في فجر يوم (2003/3/20) على العاصمة واشتد قصف الصواريخ. غدا الشارع العام وكأنه ذو اتجاه واحد (اتجاه الإياب).

وهذه المرة تصل العوائل، فضلاً عما ذكر في عربات تجرها الساحبات الزراعية وكذلك الخيول والحمير.

كانت مدينة بعقوبة ومعها مدن أخرى (الخالص والمقدادية وبلدروز وكنعان وخانقين والسعدية وجلولاء.. الخ) مع قراها تحضن هؤلاء الهاربين من جحيم الحرب.

هناك من كان بعيد النظر فاستأجر داراً قبل شهر أو شهرين ووصل ليسكن هو وعائلته باطمئنان.. وهناك من وجد في اللحظة الأخيرة داراً يستأجرها، أو غرفة، بخمسة أضعاف سعرها الاعتيادي.. وهناك من حسب حساب أقاربه وجاء ليندس معهم في بيوتهم -مع أقارب آخرين أيضاً- حتى ضاقت بهم الغرف وصالات الاستقبال والممرات والطابق.

في هذا الوقت كانت مئات العوائل تملأ الأماكن العامة والبنايات غير المكتملة، أو تنصب الخيام، أو تجلس في العراء على الرغم من برد الليالي، وإذ ذاك ارتفعت أسعار المواد الغذائية والمواصلات والوقود والنايلون الذي استخدم في تغطية سقوف هياكل البنايات ونوافذها وأبوابها لتوفر شروط الحد الأدنى لإيواء البشر.

كان فصل إضافي من فصول الألم العراقي يأخذ امتداده في التاريخ. الذي صار الكائن العراقي يبحث على هامشه عن وقت ضائع.. قوة الحياة تقشر هذا الكائن على مداهنة الموت وخداعه.

كان معظم الناس يحدسون أن صفحة من تاريخ العراق هي على وشك الإنطواء، وأن صفحة أخرى جديدة تلوح تباشيرها. ولكن مع بعض الشك. الشك في أن تلعب أميركا اللعبة القديمة عينها.. تدمر وتخرب وتبقي النظام على حاله وتذهب تاركة العراقيين في مواجهة لهول كرة أخرى.

للشهد ما قبل الأخير:

مجموعة من لابسي الزيتوني يسحبون أريكتين من مقهى قريب من موقع حراستهم ليجلسوا عليها ويبقوا حتى ساعات متأخرة في انتظار الأمريكان- وربما أغلق صاحب المقهى مقهاه تاركاً أريكتيه مع (الرفاق).

كان هذا يحصل يوم (2003/4/9) شاهد العراقيون عبر شاشة قناة العالم (الإيرانية) تمثال صدام يسقط في ساحة الفردوس ومراسلها في بغداد يطلعهم تعليقاته بعبارة (الرئيس السابق).

ذهب صاحب المقهى إلى (الرفاق) الذين كانوا (لا يزالون) جالسين على الأريكتين -وهو مالم يجرؤ على فعله في الأيام الماضية- وقال لهم:

(عيني، روحوا البيوتكم.. كل شي خلص.. نريد نعزل).

لم يحدث هذا في كركوك.. حدث في ديالى.

مشهد عرضي:

الوقت هو الظهيرة من يوم (2003/4/9)، والمكان هو المبنى البديل لموظفي المحافظة.. يجلس للحافظ وعضو القيادة المسؤول عن فرع ٤٢ حزب البعث في المحافظة، وعضو قيادة آخر هرب من منطقة الفرات الأوسط بعد دخول الأمريكان إليها.

كان الثلاثة يجلسون والوجوم بادٍ على قسماتهم..

في هذه الساعة تمرد نزلاء سجن بعقوبة بعد تهريب عدد من الأسلحة إليهم وحصل إطلاق نار كثيف بين الحرس والسجناء.

تناهت لأسماع المسؤولين الثلاثة في غرفتهم أصوات الإطلاقات غير الاعتيادية فطلبوا من أحد موظفي المحافظة أن يخرج ويستجلي حقيقة الأمر.

أوقف الموظف أول عابر سبيل- كان يجري- وسأله:

-ما قصة هذه الإطلاقات؟

قال عابر السبيل لاهثاً:

-يقولون، إنزال أميركي في السجن.

عاد الموظف ليخبر المسؤولين بما سمع (وكما قال لي الموظف/الشاهد بنفسه)، قام المسؤولون الثلاثة قومة رجل واحد وقالوا:

-يللا.. خلي نتوكل.. يا الله..).

ظن الموظف إنهم خارجون لمقاتلة الأمريكان ولكنه رأى سياراتهم تنطلق بسرعة في الاتجاه المعاكس ليختفوا وإلى الأبد تاركين المحافظة لأقدارها.

حدث هذا في ديالى.. بالتأكيد.

دمار وسوق للسلاح..

خلال أيام دمرت مباني الاتصالات كلها (المحوري والليكر ويف والدائرة الرئيسة وفروعها في مدن المحافظة) فضلاً عن مقر فرع ديالى لحزب البعث.. وبطبيعة الحال كانت منشآت معسكر سعد حيث توجد فرقة للحرس الجمهوري هدفاً يومياً لقصف الطائرات والصواريخ..

وما تبقى من ذلك المعسكر بعد الحرب جرى نهبه وتم تفكيك البنايات.. ولأسابيع -بعد سقوط نظام صدام- أقيم سوق عامر للسلاح خلف ملعب الإدارة المحلية عرض فيه مختلف أنواع الأسلحة.. وفي وسط السوق ببعقوبة بيعت الرمانات اليدوية وأسلحة الكلاشنكوف والقناصة والمسدسات وأصابع الديناميت وغيرها. وعندما تدخل الأمريكان والشرطة العراقية أخيراً أكانت الدور والبساتين قد أتخمت بالأسلحة.. وطوال الوقت استمر إطلاق النار في الهواء. وربما كان السبب هو نوع من الاحتجاج اللامعقول على ما حصل، أو نوع من التسريب لفائض الانفعالات الحادة التي اعتملت في النفوس.

سلب ونهب

في موسم السلب والنهب لم يكتف السراق بحمل ما خف وزنه وما ثقل ثمنه فحسب بل إنهم أحرقوا البنايات أيضاً.. (ترى هل هم السراق الذي أحرقوها أم ثمة أيام خفية كانت وراء ذلك؟).. مبنى المحافظة ومديرية الجنسية ومديرية الإحصاء والتجانيد وبنايات نقابات العمال واتحاد النساء ومقرات حزب البعث.. ولم ينج من الدمار سوى المؤسسات التي حافظ حراسها وموظفوها عليها وحملوا لأجل ذلك السلاح، منها (مديرية الزراعة ومديريات الماء والمجاري والضريبة وبعض فروع المصارف وبعض المدارس..)، وتشكلت لجان شعبية قامت بدور ملموس في الحفاظ على ممتلكات بعض المؤسسات ومطاردة اللصوص.

في هذه الأونة تصاعد مؤشر الجريمة بشكل مخيف فقد انطلقت الشياطين كلها من فتحاتها لتعيث في الأرض موتاً وخراباً، ولتكشف عن عمق الأزمة الأخلاقية التي خلفها العهد السابق في سلوك كثر من الناس.

كان شبح الموت يسير حراً في الطرقات ويطرق أبواب البيوت قبل أن يحشر في ركن ضيق.

الأمريكان جاءوا!

بعد يومين من سقوط نظام صدام قاد الفضول آلافاً من أهل ديالى إلى ساحة الفرق (وسميت الساحة بهذا الاسم لأن الطرقات تتفرق فيها.. واحدة تتجه نحو بغداد/منطقة الشعب، وواحدة تتجه نحو بغداد/منطقة الشتل، وواحدة تتجه نحو مركز مدينة بعقوبة، وأخيرة تتجه نحو حي منسي اسمه الكاطون).. كانت عبارة واحدة تتردد على الألسن: الأمريكان جاءوا!

في ساحة الفرق كان الزحام على أشده.. زحام السيارات إذ أغلق الأمريكان بدباباتهم الثلاث الشارع الرئيس الذاهب إلى بغداد/منطقة الشتل.. وزحام البشر وهم يحدقون في وجوه الأمريكان (التي هي أما بيضاء جداً أو سوداء جداً) من دون أن ينبسوا ببحرف كما لو أنهم إزاء مشهد في حلم أو في لوحة من كوكب بعيد.. وطائرتان مروحيتان تدوران فوق رؤوسهم.. لكنهم كانوا يدركون شيئاً واحداً وهو أنهم الآن أمام مفترق آخر، تشبه حالهم حال من يضطر لتغيير إتجاهه في الساحة التي يقفون عليها.. ساحة الفرق.

غادر الأمريكان بعقوبة بعد ساعات تاركينها للفوضى قبل أن يدخلوها ثانية، بعد أسبوعين، بثقل عسكري واضح.

وماذا بعد؟..

مرت ثمانية أشهر على انتهاء عهد صدام واحتلال العراق، وخلال هذه المدة تغيرت أشياء كثيرة في ديالى.. تلاشت الوجوه القديمة واختفى لابسو الزيتوني من المشهد العام، وتحولت مقرات حزب البعث إلى دوائر حكومية وارتفعت لافتات الأحزاب الوطنية والإسلامية على بنايات عديدة، وارتدى رجال الشرطة زياً مختلفاً، وباتت دوريات القوات الأمريكية تجوب الطرقات..

وأيضاً.. صار أهل ديالى يعرفون شيئاً جديداً هو العمليات الإرهابية.. قذائف وعبوات ناسفة وشعارات تحريضية على الجدران مكتوبة بخط رديء..

ومعها أصبحت الكهرباء تنقطع ساعات أكثر، ولم يعد النفط الأبيض والغاز والبنزين والكاز متوفراً بالكميات الكافية التي تلبي الحاجات، وارتفعت أسعار المواد الغذائية والمواصلات..

وأيضاً.. ما عاد الشباب والشيوخ يخشون من اقتيادهم عنوة إلى معسكرات تدريب جيش القدس، ارتفع دخل الموظفين ورممت مدارس وبنايات تابعة للدولة وغصت الأسواق ببضائع لم نعرفها قبلاً، وانتشرت على المباني صحون الستلايت، وأصبح من حق السكان أن يتظاهروا ويحتجوا ويشتموا من دون أن يتلفتوا يميناً وشمالاً خوفاً من أذن صاغية. (استدراك: ما زال هناك من يتلفت خوفاً حتى هذه الساعة!).

ولم يتغير شيء.. ما زال العاطلون عن العمل عاطلين عن العمل.. وما زال الفقراء يتخبطون في قاع فقرهم.. وما زالت الطرقات موحلة لم تبلط.. وما زالت المستنقعات تحاصر أزقة وأحياء بكاملها.. وما زالت الحشرات القارصة تسرق في عز الشتاء لذة النوم من أعين الواجدين في النوم مهرباً من هموم الحاضر وضبابية المستقبل.

لقد استهلكت وعود مسؤولي نظام صدام نصف أعمار العراقيين، ومنهم أهل ديالى ولم يحصلوا على الرفاهية وراحة البال.. واليوم هم يخشون أن تستهلك وعود المسؤولين الجدد النصف الثاني من أعمارهم تلك.. بيد أنهم ينتظرون.. وماذا بإمكانهم أن يفعلوا غير الانتظار؟!

خزان انفعالي

احمد السعداوي

هناك إغراء بالمقارنة ينقاد اليه من يزور المحافظات الكردية. مابين هذه المحافظات التي تعتقت منذ (13) عاما من سلطة الاستبداد والدين والمحافظات العراقية الاخرى. وبعيداً عن تعداد الفروق والاختلافات الكثيرة يدفعني الوضع للتحول والحتوم والشحون انفعاليا في بغداد الى استحضار طابع الاسترخاء والهدوء الذي يعم المحافظات الكردية، وعلى نحو خاص محافظة دهوك التي زرتها اواخر الصيف الماضي. فنحن هنا مثلا تعودنا منذ 9/4 على استقبال الضوضاء في الشارع والسوق على انها امر واقع لامفر منه: اجهزة التسجيل في كل مكان.. حتى في السيارات والتقاهي.. ويحدث في احيان كثيرة ان السائق لايسمع صوتك وانت تصرخ به كي يقف في المكان الذي تريده. مثل هذه الحالة لاتلمسها حتى في محال التسجيلات في دهوك.. وقد يقول القائل: ان تفسير ذلك لايحتاج الى ذكاء، لقد تحرروا قبلنا منذ اكثر من عقد.. ونحن الان نتعلم بطريقة فوضوية الحرية والديمقراطية.. الخ.

ومع ان هذا الكلام مصيب في كثير من جوانبه، ولكن هنالك اسبابا اخرى: فبغداد مثلا ذات نسيج متلون وكثافة سكانية عالية.. وتعاني من مشاكل بنيوية، لايمكن حلها بازالة الدكتاتورية فقط. فما الذي يدفع مواطنا ما للعراك والصراخ في محطة تعبئة البنزين؟ وهل الذين يسرقون او يسلبون الناس هم من الاغنياء ذوي الوضع الاجتماعي المستقر؟ هذه المشكلات والاوضاع تحتاج الى زمن وجهد كي تعالج، ولن انتظر حلا سريعا لها. إن ترك العسكر تاريا والقمع يطفح الان على السطح على شكل ممارسات ليس اقلها رفع صوت الذياع او جهاز التسجيل على اقصاه.. كتعبير (لا واع ربما) عن الذات المقموعة. فصاحب محل العصير او المطعم او سائق مركبة النقل. يريد ان يقول في هذا الفعل: (من الذي يتجداني الان.. فلان وراح)!!

هذا الموضوع يقودني الى النتيجة الاتية: هنالك خزان انفعالي كبير يتدفق بطريقة عشوائية الى السطح.. يمكن ان يكون هذا التدفق عملاً ايجابيا.. ويمكن ان يكون عملاً سيئاً.. هناك دافعية هائلة الان (خاصة لدى فئة الشباب) للتعبير عن الذات.. قد يأخذ شكل الحماسة السياسية.. او شكل التعدي على الذوق العام.. او اشكالاً اخرى متنوعة. في اماكن اخرى من العالم يتم استيعاب طاقة الخزان الانفعالي ودرء مخاطرها المدمرة في ثلاثة اشكال عامة: الممارسة السياسية والطاقة، والنشاط الفني فالتظاهرات والاعتصامات التي تنقلها المحطات الفضائية عن قضايا مختلفة. لايمكن ان تكون كلها او لدى فئة كبيرة من الشاركين فيها مبنية على تأمل وتدقيق في التفاصيل.. قدر ابنائها على الحماسة وروح الجماعة الانفعالية.. بدليل ان موضوعة (الحرب على العراق) كانت ذات اثر انفعالي مناسب لتحشيد تظاهرات على مساحة الكرة الارضية لم يشهدها العالم مثيلاً. اما بعد وقوع الاحتلال فلم يعد الوضوع ذو قيمة انفعالية تساعد على تحشيد تظاهرات اخرى. فالمواضيع غير البراقة والمثيرة تفشل في هذا المضمار.

الممارسة السياسية مجال حيوي لتفريغ الطاقة الانفعالية. ولربما حسمت الكثير من الرهانات السياسية استنادا الى مخزون هذا الطاقة فحسب.

ولكني لااريد التكلم في السياسة، انا افكر فقط في مصير هذا الخزان الانفعالي الذي يتدفق الان بطريقة عشوائية، افكر في مجالي الفن والرياضة بوصفهما العنصرين التقليديين المؤهلين لامتصاص هذه الطاقة. لكن مجتمعنا غير مؤهل بعد لاحترام الممارسة الفنية او التعاطي معها، بوصفها خرقاً غير محبذ ولايحظى بالتأييد الا في نطاق محدود.

ولحسن الحظ ان الممارسة الرياضية غير مشمولة بهذا الكلام والا لكانت الكارثة. اذن الزيد من اللاعب والزيد من الدرجات، والزيد من الفرق الشعبية للرياضات كافة.. التركيز اكثر على العاب الساحة والميدان والسباحة.. ايقاظ فعاليات الرياضة في المدارس من سباتها، اجراء مسابقات وجوائز واوسمة.. (لقد اصبح هذا العمود رياضيا.. اليس كذلك؟!) عموما.. يجب ان لانستهين بهذا لخزان الانفعالي.. وقدرته على تنشيط الاشياء السيئة إذا لم نتعامل معه بوعي وتخطيط. ولنكن بلداً رياضيا (في الاقل) اذا ما انعدمت الخيارات الاخرى. ولا اظنها كذلك!.

امنيات العام الجديد (2004)

امنيات ليس الاّ. ولن نضرب بها المثل القائل انها رأس مال المفلس.

فالأمنيات العراقية مشروطة بالحياة. بالتعب. بالرغبة في التغيير. بحسّ العدالة. ولأن الامنيات مرتبطة بالمستقبل. فهي تستقبل ارادات الناس واخلاقياتهم. وما يريدونه لأنفسهم ولمجتمعهم ولعراقهم الذي خرج توّاً من محنة الدكتاتورية. لنستمع إذن الى امنيات شرائح مختلفة من الناس.. ونتمنى لها أن تتحقق.. ونتمنى للجميع أن تستجاب مطالبهم في السعادة والنجاح على اعتاب عراق مستقل ديمقراطي فدرالي موحد.

المعلمون

عانت شريحة المعلمين الكثير من الاهمال والتي انتعشت اخيراً ببعد التعديل الاخير في جدول الرواتب. التقينا الاستاذ جبار وناس وسألناه عن امنياته فأجاب:

- ان يسود منطق الحق والعدل والتسامح بين ابناء الوطن وأن يكون العقل والعلم هو الطريق الذي يحدد المسارات المختلفة لأبناء الشعب وان يكون هناك فهم حقيقي للديمقراطية كطريق حضاري وان يعاد للمعلم دوره الحقيقي.

أما الست زينب أم مرتضى فقالت:

- تمنى من الناس ان لا يسمحوا بالتجاوز على حقوق الآخرين وان يجتثوا جذور الديكتاتورية التي تجذرت في النفوس المريضة وتفرعت إبان عهود الظلام.

أما صباح محسن (مدرس وكاتب) فقال:

- تمنى نجاح تطبيق التجربة الديمقراطية في بلاد الحضارة وتأسيس مجتمع مدني متحضر يكون نموذجاً انسانياً راقياً.

الفنانون والادباء

احمد البكري (قاص) صاغ امنيته على النحو الآتي:

تمنى في العام الجديد ان ينشر السلام جناحيه على العراق وان يعم الخير والرفاه بين ابناء الشعب العراقي ويدالوا حقوقهم الصادرة في العهد المقبور وان يستمتعوا بحرياتهم التي غيبها الديكتاتور السابق، وتمنى ان يعود المهاجرون من اصدقائي الى ارض الوطن ويمثل صدام الذي اقترف جرائم بحق الشعب امام محكمة علنية.

وقال الخرج يلسر البرك:

- امنيتي الوحيدة أرى ملامح نظام سياسي حقيقي في العراق يحترم الانسان بتعدد افكاره ورؤاه ويتعامل مع مواطنيه على اساس المودة والشفافية، وان يكون السلم والبناء منهجه في النظر للمستقبل.

حميدة (ممثلة)

كنت تمنى رؤية من غيبهم صدام في مقابره الجماعية. ولا أمنيات في الوقت الحاضر وكل شيء مؤجل.

الطلبة

حسناء طارق طالبة قالت: تمنى النجاح وتحقيق الأمن والاستقرار.

هند فوزي: النجاح والخير للعراقيين جميعاً

أماني جبار: النجاح والصحة والعافية للأهل وعدم رجوع صدام.

خالد مصطفى: تمنى ان اجد من يهتم بطاقات الشباب ويرعى مواهبهم المبدعة فهم دماء العراق الجديد.

اما سحر حسين فقد قالت: لقد تحققت كل الامنيات بالقاء القبض على صدام ووداعاً للديكتاتورية.

العمال

ابراهيم الصريفي: تمنى ان يعم السلام والأمان في عراقنا العزيز والخير والمحبة في ارجاء المعمورة وان ينعم اطفالنا بمستقبل مشرق وكل الحب للعراقيين.

عادل: تمنى ان تتوقف بعض التحركات السياسية عن ممارسة دور الرقيب على الوطن وأن تكف عن مطاردتها لهم واحتجازهم احياناً في مقراتهم.

ابو وسيم (نجار): ادعو الى اشاعة الديمقراطية والحرية الشخصية فقد آن الأوان لكي يتمتع شعبنا بالحرية بعد ذلك الكابوس اللعين.

الطفولة

علي جبار (6) سنوات: تمنى ان توزع علينا الهدايا وان نستلم حقيبة مدرسية فأنا لم استلمها لحد الآن!

عادل سعدي (7) سنوات: تمنى النجاح وأن اصبح لاعب كرة قدم.

حسين صلاح (10) سنوات: تمنى ان انجح وان اتعلم الكومبيوتر وان اصبح مهندساً.

الفلاحون

شاهين الطائي: أي امنيات؟ لقد تحققت ام الامنيات بالقاء القبض على صدام.

هادي حسن: تمنى الامان والسلام وأن تتوطد العلاقات الطيبة بعد ان ازاحت الديكتاتورية وتم القاء القبض على صدام.

المرأة

اقبال (ام علي): هذا العام أحلى عام وبشارته هي القاء القبض على صدام. تمنى ان تعم فيه المحبة والسلام، ولو لا حزني على عمتي التي توفيت البارحة لقلت البيت الى مهرجان للفرح.

ام محمد: عام الخير والبركة على امة محمد والناس اجمعين.

ام فليح: تمنى توفير فرص للعاطلين عن العمل فبيوتنا ولودنا اكملوا الدراسة وهم بلا عمل.